

الشوارع تشبه وجوه ساكنيها

معمار قلب الدار البيضاء

كلما ابتعد الترامواي عن وسط المدينة باتجاه الشمال، قلّت جودة أحذية الركاب الجدد. الواجهات العمرانية أفضل من الخلفيات حيث مباني متسخة وبعضها آيل للسقوط.

مبنى مقرّ البريد في قلب الدار البيضاء غاية في العظمة، نوافذ كبيرة جداً وسقف يرتفع ستة أمتار تحمله أعمدة تستلمهم الأكربوبول الأثيني. على السقف جيس، وعلى الأرضية رخام أبيض موشّح بنقوش بنية، وعلى الجانب أكشاك رخامية وأبواب من الخشب المقوّش.. من بريد الكلام في الهاتف ينتظر دوره ويدخل الكشك ويغلق عليه الباب ويتحدّث قليلاً ويدفع كثيراً.. من فرط أهمية البناية خلّدتها الدولة في طابع بريدي.

يدل موقع المبنى وفخامته على عظمة التواصل في حياة البشر. الآن صار التواصل في الهاتف يجري في فضاءات عامة بصوت مرتفع وبترترة لا نهائية وبكلفة قليلة.. فقد المبنى وظيفته، وبقي الرخام شاهداً على مجده. لم يعد الكُتّاب يتبادلون الرسائل التي ستنتشر بعد وفاتهم لكشف حياتهم الحميمة. يكشف فائيسبوك الحميمة فوراً.

الهاتف النقال أطاح بالعظمة

في هذه البناية العملاقة موظفة وحيدة وبعض الزبائن الذين يودّون إرسال علب على وجه السرعة. تساقطت قطع الرخام من قواعد الأعمدة. يعكس الصمت والرتابة تدهور دور المبنى في حياة الناس. لقد انتقلت عظمة مبنى البريد إلى الهاتف المحمول. صار جهاز صغير بحجم الكف يقوم بكل وظائف المبنى الرخامي. يرسل ويتكلم ويصور وفيه ساعة، لذا أفلس المصوِّرون والساعاتيون وصارت الساعات أشبه بسوار ذهبي للتجميل فقط دون وظيفة فعلية. ينطلق هذا الوضع على الكثير من البنايات التي بنيت في عهد الاستعمار مثل مقر بنك المغرب. صارت البطاقة البنكية أهم من بناية البنك التي لا يزورها أحدٌ إلا نادراً.

في محيط قلب المدينة عمارات قديمة مرّتنة، فيها لمسة هندسية متميزة، وبجانباها عمارات جديدة زجاجية أو إسمنتية مسطحة بلا ملامح هندسية..

ساحة الحمام (محمد الخامس)، حيث تجري بين حين وآخر احتجاجات نخبوية بالشموغ في الساعة السادسة مساءً، احتجاجات يقودها متنازلون موسميون يتصرفون برد الفعل، ينتظرون حدوث مشكل في مكان ما للقيام بوقفة تضامنية مدتها ثلاثون دقيقة لتلنطق لها 3000 صورة.

حول الساحة محكمة وبنك ومبان عملاقة. تبعث المباني الكبيرة النخوة الوطنية في نفوس أفراد الشعب، نصح ميكافيلي الأمير بالبناء الكبير، تمكّنتنا الآثار (حسب ريمون أرون) من إعادة بناء ما عاشه الذين سبقونا. ماذا تقول الجدران؟ تقول عاشوا المجد.

تعكس المباني الكبيرة طموح أصحابها، تعكس العظمة والجمال. أعظم داعية للفراعة هي الأهرام. في الأفلام تحصن قوى الشر في مبان عظيمة. توفر المباني الكبرى فرجة حقيقية، ويريد السياح مباني كبيرة ليلتقطوا صوراً تحتها، هناك سياح يتأخرون بالتصميم الذي يجبل المبنى إلى الأيقونة أو منحوتة مدهشة، وهناك من ينفر من البنية التي لا تشبه ما حولها، وهي تعكس نرجسية مصممها أكثر مما تؤدي وظيفه.

في كازابلانكا، كثير من العمارات القديمة الصامدة مهدد

بالهدم ليكتمل صف العمارات الزجاجية التي لا تحمل

واجهاتها أية بصمة هندسية

يعكس المعمار - وخاصة قلب كازابلانكا التي بُنيت في عهد الاستعمار - تاريخ المدينة: عمارات من بضعة طوابق مرّتنة الشرفات ولها سلام هناك أولاً مجموعة معادلات تنطبق عليها مصالح مختلفة. ضمن هذا، وعلى المستوى المحلي وهو الحلقة الأضعف، هناك تقاسم الفئات التي تؤسس لاقتصاد حرب وولاءات محلية مبنية على اقتصاد حرب. على المستوى الإقليمي، هناك الكثير من الدول التي تواجه استحقاقات سياسية وتحديات وجودية صعبة، وترى أن فوضى الحروب تعفيها

1

يكثر الطلاق بين السوريين، الذي غالباً ما تتطلبه النساء بعيد وصولهن الى بلدان اللجوء؛ المستوى: بالارقام والمسببات والن نتائج. وفي مصر مبادرات أهلية لتيسير الزواج ومحاربة مثاليه ولا رومانسية!

2

التعليم الخاص يتغول في تونس، بينما كان معدوماً قبل ثلاثة عقود، وكانت المدرسة الرسمية ممتازة

3

خلع الحجاب في مصر: الدفاع عن الحق بالإختيار. وفي «بألف كلمة»: الجفاف في الصومال، وعلى الموقع: المساهمة الاقتصادية للمرأة المغربية، والوزراء في الجزائر يخفضون رواتبهم، ونقاش لعروض أفلام «شاشات» في فلسطين.

4

طيلة عشرين ساعة يومياً. يقطع عشرين كيلومتراً بأقل من دولار، من أقصى المدينة إلى أقصاها. يمر قرب نخلات بلاستيكية في الأحياء الفخمة ووسط المدينة، نخلات لشركات الاتصالات تكرس الاعدالة بين الأحياء: في الأحياء الفخمة صيبب أنترنيت وسرعة التواصل عالية بخلاف ما في الأحياء الشعبية، الذين يدفعون أقل يحصلون على الأقل. إنه عدل سوقي، فالشركات تعرف المشترين كزبائن لا كمواطنين. وهنا لا تتدخل الدولة التي تعتبر الأفراد مواطنين متساوين نظرياً.

مظهر آخر: على الرغم من قلة عدد الأغنياء، فالاستثمار في مساكنهم أكثر ربحية. لذلك تجد الحكومة صعوبة في تشجيع المستثمرين على بناء عمارات للفقراء، وهم أكثرية. في ميدان العقار يوجد خلل في موازين القوى بين موظف الدولة الذي يقود سيارة صغيرة والمقاول العقاري الذي يقود سيارة جاغوار عملاقة.

يمضي التراموي بين عمارت الأغنياء. الجدران عالية ضخمة والمساحات حولها واسعة.. ومظهر ثالث للاعدالة هو كثرة الخضرة في حقائق الفيلات.

تشبه الشوارع وجوه ساكنيها، هنا لن ترى الحمير ولن تشم رائحة الحقل في ملابس رواد المقاهي. قريباً من البرجين التوأمن نتعدم مظاهر تريفيف المدينة، هنا طبقة وسطى حقيقية ووضع النساء مريح، وهن تجلسن في المطاعم وتصرّفن بنقفة في فضاء يحميهن ويدلهن.

كلما ابتعد التراموي عن وسط المدينة باتجاه الشمال قلت جودة

أحذية الركاب الجدد، الواجهات العمرانية أفضل من الخلفيات، حيث

مبانٍ متسخة وبعضها آيل للسقوط. على الخط مؤسسات تعليمية مثل ثانوية عقبة، اعدادية صلاح الدين الأيوبي، ثانوية العقاد... لجل المؤسسات التعليمية القديمة أسماء غير مغربية، عدا بعض الشجر في المؤسسات التعليمية لصارت المدينة هنا قرعاء. فجأة تطالعك مبان إدارية ذات تصميم غريب مقارنة بما حولها، مثل مقر مقاطعة الحي المحمدي التي تبدو كصرح روماني بنوافذ مقوسة، بينما تحيط به بنايات مخفضة قديمة وسخة.

يمضي التراموي باتجاه حي سيدي مومن، وقد انقرضت الخضرة تماماً. هناك حجر ولا شجر، يتحدث المعمار بوضوح عن التراتب الاجتماعي. يدل حجم نوافذ العمارة على ساكنيها. على جدران عمارات الفقراء نقوب تسمى نوافذ وشرفات ضيقة فيها الكثير من الأشياء المهملة مثل دراجة قديمة وفراش وغسيل. بين عدد من العمارات أراضٍ مهملة لن تصير حدائق رغم عود المسؤولين بالتشجير. مزايل طارئة ستتم إبادتها لبنشئ المواطن مزايل جديدة لكي لا يقطع مئة متر ليصل إلى حاوية الزبالة الذين تحاصرهم الجدران. هنا عمارات متصلة، وحين تظهر أشجار فهي غالباً حدائق المؤسسات التعليمية. ويسبب انتشار المدارس الخصوصية، أغلقت

مدارس عمومية عدة وعُرضت للبيع، لكن يخشى سماسرة العقار الاستيلاء على أراضياها لأن الرأي العام سيستهر بهم. في هذه الضاحية الشمالية محتوى ريفي يظهر في البشر واللغة ومصادر الرزق. هنا حي «سيدي مومن» الذي خرج منه الانتحاريون الذين فجروا مواقع عدة بالدار البيضاء في أيار/ مايو 2003، وفرت الدولة تغيير الحي العشوائي للقضاء على جذور الإرهاب، فصار غاية عمارات قرعاء دون مناطق خضراء وبسمة مربعة.

هنا فضاء هجين يفقد التناسق والاستمرارية، وهو يشبه ذاكرة عشوائية، فضاء يستقبل المهاجرين الجدد الذين جاؤوا للدار البيضاء بحثاً عن الرزق والأمل. يفقد الواصلون الجدد اليقين الاجتماعي، بعد انقطاع جبل السرة مع منتشهم الريفى. يصير شعارهم وأيضاً النصيحة التي يقدمونها بدورهم للواصلين الجدد هي«اشتر تاكل، اكثر تسكن». أي ليس لديك من تعتمد عليه.. يسمح الواصلون الجدد النصيحة باستغراب لأن من تعود على مجتمع متكافل في البداية يستغرب من قيم الفردانية المتوحشة وسبححاج زمناً ليهضمها. في نهاية خط التراموي بحي سيدي مومن مسجد كبير يحيط به سوق.. لن يملكوا القليل من المال.

محمد بنغيز
كاتب وسينمائي من المغرب



الترامواي في الدار البيضاء

بعد ستين سنة من الاستقلال، ما زالت أطلال المعمار الاستعماري صامدة، كما عدد من القواعد السياسية التي طبقها الحاكم الفرنسي، الجنرال «ليوتي» (Lyautey) لإخضاع البلد. لكن كثيراً من العمارات القديمة الصامدة مهدد بالهدم ليكتمل صف العمارات الزجاجية التي لا تحمل واجهاتها أية بصمة هندسية.

في الدروب الخلفية للعمارات أبواب غامضة، هنا حانات مظلمة هي بيدل عملي للحرب والنقابة والنادي الثقافي. مع الكؤوس تفتتح العواطف ويستنزف الغضب، وبعدها تنتشر رائحة البول بكثافة في قلب المدينة، بسبب غياب المرافق، فلا مراحيض عمومية. والرائحة تحيط بمقار إدارية. يروي زبائن المقاهي أن سبب عدم فوز الغرب بتنظيم كأس العالم 2010 هو أن امرأة أميركية عضو في لجنة الفيفا لم تجد مكاناً تبول فيه في المدن المغربية المرشحة لاستضافة مباريات المونديال!

توجد أفضل المراحيض في المساجد، مثل مسجد الحسن الثاني الضخم الذي بُني في 1986، وتبني الجزائر ندأ له منذ سنوات من دون أن ينتهي. لا يواجه بناء المساجد ومراحيضه الرخامية الواسعة أية مشاكل مالية، على بعد متر من كل مسجد هناك جدار كتب عليه «مسجد للصلاة». سيئسفر القارئ باللمسة من هذا التوضيح لوظيفة المسجد. المهم هو المسكوت عنه، هذا المسجد ليس لخدمة الجمعة والوعظ. من أراد الاستماع للخطابة والوعظ ليقتصد مسجداً آخر. على عمود كهربائي إعلان عن روض «أبو مصعب للناشئة... شعرت بالخوف.

تتطلب ملاحظة هذه الظواهر السير على الأقدام لمسافات طويلة في أمتنة غير مبهجة، بينما المتعب في المدينة هو رحلة بالسيارة على كورنيش يمتد عشرة كيلومترات، وهو فضاء جذاب وبسببه فقد قلب المدينة أهميته وبهجته.

الدار البيضاء هي العاصمة الاقتصادية للمغرب، وهي وجهه العصري. والمعلم الرئيسي الظاهر في المدينة هو ذاك المسجد الذي بناه الحسن الثاني لإظهار تدينه. أما المعلم الحقيقي فهو الميناء، لأنه روح الاقتصاد.

وبسبب فناء المنطقة فهي تعرّضت لهجمات مبكرة. فقد استولى عليها البرتغاليون في 1468، وحصّنها السلطان في نهاية القرن التاسع عشر، وكانت أول ما احتله الفرنسيون سنة 1907. وما زال حول المدينة القديمة سور ومدافع. السور أداة حربية متجاوزة. كان لجدران المدن دور سياسي وعسكري قبل بارود المدافع الذي جعل الحصون بلا معنى، لذا ظهرت المدن التي تفتح قلبها للبحر بدلاً من أن تدير ظهرها له. تمنع الأسوار المدن القديمة من التمدد، لذلك تمردت المدينة الجديدة على السور. في المدينة القديمة أزقة دوغائية بلا مخرج، وفي المدينة الحديثة شوارع جوارية يؤدي بعضها إلى بعض. عرفت الدار البيضاء أهم الإضرابات في تاريخ المغرب، وخاصة إضراب 1965 بسبب التعليم 1984 بسبب سياسة التقشف التي فرضها صندوق النقد الدولي. انمكس درس الإضرابات عمرانياً على الأحياء التي صمّمت بعد 1984، والتي تلت تفكيك المدينة إدارياً إلى مقاطعات عدة، مع الحرص على تصميم شوارع عريضة وخلق فواصل كبيرة بين الأحياء.. فضاءات قد تصبح حدائق أو مزايل بغرض تصعيب إقامة المتاريس على المتظاهرين، ولتسهيل سيطرة شرطة مكافحة الشغب على الإضرابات.

وبالخروج من قلب المدينة، يسمح التراموي برحلة ترسم بورتريه كازابلانكا، من القلب باتجاه الضاحيتين الشمالية والجنوبية. الرحلة ممتعة، الأمان في التراموي المكيف والمضاء والذي يمرّ كل ثماني دقائق

وظيفية؟ هذا السؤال مطروح على مستوى عالمي وليس فقط على مستوى فردي. فحاليا هناك 40 ترليون دولار ميزانية مكافحة الإرهاب لبعض الدول.. 2011 كانت تؤسس لخروج المنطقة من هذا العنف. كل فشل لذلك، وكل محاولة لإعادة المنطقة إلى ما قبل ذلك، يؤدي إلى مأسسة هذا العنف، ويؤدي إلى استمرار هذه الحلقة الاقتصادية، من بائع السلاح في سوق الطلح في اليمن إلى «لوكهيد مارتن» في الولايات المتحدة الأميركية.

● **مقاطع من الجزء (2) من المقابلة مع فارع السلمي، النص الكامل على موقع «السيّفر العربي» وصوتياً كذلك على إذاعة «الوضع».**

تستطيع أن تتناقش معه عبره. التقيتُ حينها بواحد من كبار المسؤولين الأميركيين، وفي معرض دفاعه عن استخدام الطائرات من دون طيار، قال إن العيار الأهم هو أن «القاعدة» منذ استخدام الـ «درونز» لم تشنّ هجمة واحدة على الولايات المتحدة الأميركية، (تنظيم «القاعدة في جزيرة العرب»)، مضيفاً أنه ما دام الأمر، كذلك قال «درونز» سياسة ناجحة. قلت له: هذا هو الفارق الجوهرى بينى وبينك.. فأنت تريد أن تدير قضية القاعدة، بينما أنا أريد أن أحلّها من جوهرها.. أنت أصبحت جزءاً من شريان هذا التنظيم بشكل ما، لأن هدفك الأقصى والأبعد هو فقط إدارته والتأكد أنه لن يصل إلى أميركا، وليس إنهاءه من جذوره. وسألته سؤالاً أريكه أو فاجأه: إذا انتهى غداً تنظيم القاعدة في جزيرة العرب، فهل تمتلك أنت شخصياً

عرّاب مستوطنة وليس سفيراً

حتى اتفاقيات أوسلو. «بيت إيل» تزحف الى القرى هناك وتصادر الأراضي كحق طبيعي في «يهودا والسامرة»، «الاستعادة» بعد ألفي سنة(!) والحكومة الإسرائيلية تقرر «نقل» أهل الجلزون الى الأغوار، لإتاحة توسيع المستوطنات. منذ شهر، سقط شهداء هناك في مقاومة للتتهجير الجديد. والمستوطنون يعتبرون نتيجاهو متواطئاً مع الفلسطينيين المتغيبين، وبطلهم هو نفتالي بينيت صاحب «حزب البيت اليهودي».

هكذا هي الحياة الفلسطينية، ولا جديد سوى أن السيد فريدمان قادم إليهم، بجمعيته التي تمولّ «تنمية» مستوطنة بيت إيل. وعنده كذلك نظرية كتبها في جيورزليم بوست مطلع الصيف المنقضي: «التنازل عن أي أراض للإرهابيين الفلسطينيين يعادل تسليم بغداد أو باريس إلى داعش». هكذا، وباختصار ووضوح.

دافيد فريدمان، العين سفيراً لواشنطن في تل أبيب ليس سفيراً ولا عمل يوماً في الخارجية ولا في أي إدارة أميركية. هو بالتاكيد صديق ترامب، مثله مثل سائر الوزراء الذي عيّنهم الرئيس بانتظار استلام منصبه. ولكن لفريدمان خصوصيته في المجال، فهو على صلة «ببيزنس» وثيقة بترامب، بعدما اهتم لسنوات بتوظيفات الأخير في الكازينوهات وصلات القمار، ولم يصبح صديقه الشخصي «إلا» منذ عشر سنوات.

وفريدمان محامي تفليسات من نيويورك، ومن يعرف المهنة يفهم معنى اختيار هذا «الإختصاص» فيها، وأيضاً ماهية أخلاق من يمارسه. ولكن على هذه وتلك، فهو رئيس «جمعية الأميركيان أصدقاء بيت إيل».. المستوطنة المنشأة في 1977 على الشمال من رام الله، عند مخيم الجلزون للاجئين الفلسطينيين.. الذين هجّروا من منطقة اللد، وأقاموا في هذا المخيم منذ 1949، وكانت ترعاه الأونروا

←

→

في مجتمعات اللجوء السوري

الطلاق ليس أبغض الحلال!



فادي الحوي - سوريا

«كفّ صغير» على وجه مني، التي وصلت إلى السويد قبل عامين كان كافياً لتطلب الطلاق، وتحصل عليه لاحقاً من زوجها الذي استهول الأمر ورفضه بالطلاق، إلا أن الزوجة (22 عاماً) بررت الأمر بأن الحياة معه لم تعد تطاق، فيما لم تنكر تأثير المكان عليها، فلو كانت في سوريا، لا تجرأت على الطلاق «إننا نعيش في مجتمع ذكوري».

تتقاطع قصة مني مع قصص أخرى، طلبت فيها سوريات الطلاق فور وصولهن إلى بلاد اللجوء. إحداهن طلبت الطلاق ما إن هبطت طائرتها في مطار العاصمة السويدية بعد أن استدعاها زوجها عبر «لم التمثل»، فيما أقدم رجال (ونساء) على إرسال أوراق الطلاق للشركاء رافضين «لم التمثل» على الرغم من وجود أطفال. في بعض الحالات يشترط الأهل لإكمال الزواج تأمين نفقات الهجرة إلى أوروبا، أو يقوم الأهل أنفسهم بدعم «الصهر» كي يهاجر، في حالات متطرفة، وقعت جرائم قتل.. كما حدث مع حسناء الأستر - لديها طفلان - التي قتلها زوجها بعد أربعة أشهر من وصولها إلى ألمانيا طعناً بالسكين.

تؤشر القصص السابقة إلى متغيرات لم تكتمل وضعياتها إلى حدود التحول إلى ظاهرة مجتمعية، ولكنها حاضرة بقوة في علاقات أزواج اللاجئين مع مجتمعات لجونهم الداخلية ومع قوانين وعادات مجتمعات بلدانهم الجديدة.

نسب وأرقام

وصل عدد طلبات لجوء السوريين إلى أوروبا وفقاً لمفوضية اللاجئين إلى أكثر من مليون طلب مطلع عام 2016، قبل منها في ألمانيا فعلياً، وفقاً للمكتب الاتحادي للاجئين والهجرة، حتى منتصف 2015 نحو 32 ألفاً. تشير خريطة وصول القادمين منهم عبر المفوضية - وفقاً لجمعية البيت السوري في ألمانيا - إلى أنهم وقدموا بشكل رئيسي من دمشق (وريفها) وحمص ونسبة كبيرة من حوران ومناطق الشمال (كرد وعرب). أما الواصلون لوجدهم فلا يتوفر تعداد دقيق لهم ولتوزعهم، وتحدث بعض التقارير عن ربع مليون لاجئ على الأقل عن طريق البحر، آخذين بالاعتبار إغلاق أبواب الهجرة تقريباً.

وقد أفادت دراسة المكتب الاتحادي الألماني لعام 2014 أن نسبة الذكور من اللاجئين السوريين بلغت 71 في المئة مقابل 29 في المئة للنساء، قرابة الثلث منهم غير متعلمين، أشارت دراسة قدمها مركز فريبل (ألمانيا) في أيار/ مايو العام الحالي، إلى أن حالة واحدة من أصل خمس حالات وصلت إلى ألمانيا حدث فيها طلاق (20 في المئة)، هي نسبة ليست بالقليلة (ثمانية آلاف حالة) يفرض دقة الإحصائية.

في هولندا والنمسا، هناك ارتفاع مشابه بالنسب الطلاق بين السوريين، حيث تكرر المنسب سؤال الطلاق لدى وصولهم إلى البلاد بغية الحصول على اللجوء بشكل شخصي لا عائلي، طالبات فضل ملفاتهم عن أزواجهن، وما لا شك فيه أن نساء كثيرات فكرن بالأمر طويلاً حتى قبل الحصول على تأشيرات الدخول أو الوصول. وتواجه الدوائر الحكومية في السويد حالات لفتيات متزوجات تحت عمر السن القانونية (14 و15 عاماً) لجأت إلى الحكومة لإنقاذهن من ضرب واعتداء واستيلاء الأزواج على ممتلكاتهن، إضافة إلى

ظاهرة الطلاق الوهمي (عدم الاعتراف بالزواج أمام المحكمة) التي يسعى فيها الزوجان للحصول على شقتين منفصلتين ومساعات أكبر، فيما يقفون على اتصال سري.

صورة المرأة في المرأة الأخرى

وعلى الرغم من سعي غالب المطلقين إلى إخفاء أسباب الطلاق تفادياً للقليل والقال الذي يسم مجتمعات اللجوء، فإن صورة العائلة الغربية، بما تحمله من تشارك في المسؤوليات والحقوق والواجبات للطرفين أمام أعيان الاجنات، شكلت أحد أبرز العوامل في انطلاق شرارات المشاكل، فصوره «سي السيد» التاريخية - العاقل من العمل أساساً في الحاليين غالباً - في مجتمعات الشرق، الذي يقضي وقته بمشاهدة التلفزيون فيما المرأة تعمل ليل نهار، انتقلت إلى مجتمعات اللجوء في ظل ظروف حياتية أصعب، وأمام دعم القانون وتواتر حالات المقاومة النسائية، تزايدت جراحة النساء على محاسبة أزواجهن وتقديم شكاوى ضدهم. اليوم هناك أكثر من 300 رجل سوري يحاكمون أمام القضاء الألماني بتهمته الشروع في إيذاء زوجاتهم.

تكشف هذه التحولات أن الاحتكاك بالمجتمعات الجديدة أنتج في الممارسة نوعاً من الوعي النسوي، صدم الرجال المعتادين نمطاً من خضوع المرأة لرغباتهم. ولهذه القناعات الذكورية بالضرورة أساسها الواقعي في المجتمعات الأم كالجميع السوري، حيث ترتفع نسبة الأمية عن 31.5 في المئة (وتزيد عن 60 في المئة في الأرياف، بحسب المكتب المركزي للإحصاء 2012)، ويمارس العنف ضد الأطفال والنساء بنسبة وسطيّة تقترب من 22 في المئة («الأمانة السورية للتنمية» 2012)، دون أن ننسى تأثيرات الحرب على العلاقات الزوجية ورفضها لنسب العنف والتفكك لأسباب كثيرة. قد تكون نسب الطلاق عادية بالمحصلة كأي مجتمع آخر، لكن هناك تغييراً واضحاً التقطت المرأة طرف خيطه، هنا يوجد مجتمع يمنح مظلة قانونية متساوية للجميع.

من جهة ثانية، فإن وجود فرص متعددة لاستقلال المرأة كعاملين سكن منفصل لها ولأولادها وحمايتهم من اعتداء الزوج، والتخلص من سب «العار» التي كان سيتحفظها بها مجتمعها الأصلي، جعلها على استعداد أكبر

للمغامرة، وأن ترتفع بالتالي نسبة طالبات الطلاق خاصة بين المتعلقات المتزوجات من أزواج غير متعلمين أو أقل منهن تعليمياً، من هنا تفهم لماذا تظاهر أكثر من ألفي رجل سوري في ألمانيا ضد منح زوجاتهم حقوق الحماية القانونية، التي تمنعهم من ضرب زوجاتهم وممارسة العنف ضدهم، وهو حق «شرعي» لهم كما يعتقدون.

موسم الهجرة إلى الشمال من جديد

تتألف مجتمعات اللجوء، بوضعها الراهن، من خليط لا تنطبق عليه مواصفات المجتمعات الأم، فلا هو مجتمع مؤلف من أبناء دولة واحدة في الغالب، ولا طائفة واحدة ولا حتى عرق معين. ومع زيادة حجم الشتات يضعف الاندماج بالمجتمعات المضيفة مؤدياً إلى توسيع حجم المسافة الثقافية الفاصلة عن السكان الأصليين، وإلى زيادة حجم التفاعل سلباً ضمن الجماعة اللاحقة (الأقل تماسكاً) على حساب قيم المجتمع الجديد كما يشير (بول كولبير في كتابه «الهجرة»).

خلص تحقيق أجراه موقع سوري (هولندا)

إلى أن أكثر من 50 في المئة من حالات طلاق السوريين ضمن مجتمعات اللجوء سببها الخيانة الزوجية، وهو مؤشر ثقيل مهما قيل في تبريره أو التقليل من دقته الإحصائية، فهناك دون شك صورة نمطية غرست عبر عقود من الميديا في أذهان كثيرين عن مجتمعات الغرب وما «تسائنه اللواتي ينتظرن الفاتحين» وغيرها مما يتداوله العقل الجمعي للذكور اللاجئين، ليس أدل عليه ما تداوله السوريون أن من أهم أسباب «فتح» - ننتهيه إلى الكلمة - أبواب الهجرة إلى أوروبا هو «شيخوختها» وقلة رجالها، عدا عن طروحات «أسلمة» النساء كصفحة لنشر الدين القويم هناك.

إن ظاهرة طلاق النساء المحليات للزواج وأجنيبات بحثاً عن الجنسية هي ظاهرة قديمة - جديدة، يعرفها المهاجرون منذ عقود. إلا أن الجديد فيها الزواج بنساء شابات بدل العجائز كما حدث سابقاً، وهو فعل قام به رجال متعلمون تعليماً عالياً. إلا أن النسبة تبقى قليلة، بدليل عدم نجاح تجارب اندماج المهاجرين الأولى وغالباً أسباب دينية. لكن الرغبة ببداية جديدة في بلاد اللجوء تترافق مع السعي لإنقاذ

صفحة العار/ العاربية عن اللجوء/ اللجوء، وتمهد للانتقال إلى المجتمع المضيف بيسر، وإلا فكيف نفهم دوافع زوجين عانيا ودفعاً «ما فوقهما وتحتهما» - بالتعبير السوري - ليفترقا بعد وصولهما إلى بر الأمان؟ يحاول هؤلاء قطع جذورهم بتاريخهم السابق بأنفسهم، دون الالتفات إلى خسائرتهم معتبرين إياها فعلاً ربحاً مستقبلياً مضموناً.

إلى أين؟

يحتاج تقييم هذه المسائل بما هي سلباً وإيجاباً إلى مزيد من الوقت حتى تتضح أكثر، وخاصة أن الموضوع يمثل جزئية من موضوع الهجرة ككل، وهو يمس لا فقط اللاجئين بل ودلعهم المضيفة، التي تتعرض لضغوط مختلفة بشأن قبول المزيد منهم، وضغوط من جهة غرب الأقصر، بعد السلام والترحاب، توجهنا إلى دون المدارس في طريقها إليها، بل على عربة خضروات خشبية تمتلئ بالباذنجان.

كمال شاهين

كاتب من سوريا

تعالَ معي إلى الصعيد.. تشریح قرية (1)

يعد انقطاع دام 15 عاماً أو يزيد، أعود لزيارة قرية الأجداد، «الشأورية». إحدى قرى مركز «نجع حمادي» بمحافظة قنا، المناسية: حضور حفل زفاف أحد الأقباط، وهي أيضاً فرصة لزيارة أناس تجمعني بهم قرابة وذكريات، أو لي بهم سابق معرفة. التواصل المباشر بالتاكيد سيكون مختلفاً عن التواصل الهاتفني أو الفيسبوكي، وهذه السنوات الطويلة قد تركت آثارها على الوجوه والأجساد والشخصيات أيضا، وعلى المباني والبيوت، وجوانب أخرى كثيرة تستعصي على الحصر. يبدو الأمر متبراً للاهتمام والمشاغرين أيضاً.

الذكريات

«الصعيد» الذي كنا نزره صفراً في الإجازات الصيفية، وكانت زيارته مصدر فرح، فهي تعني اللعب واللهو والانطلاق في طرقاته الترابية الأمانة من مرور السيارات إلا فيما ندر، وفي الحقول الشام والبطيخ والقصب الذي كنا نستمتع بصم أعواده وتزعجنا أوراقه الحادة التي تؤذي وجوهنا ونحن نسير. نشارك بنات وأولاد في مثل أعمالنا في اللعب بالطين، أو في لعبة السبع طويات، أو في ألعاب أخرى اخترعت هناك وجرى توارثها، تعتمد على مواز من البيئة المحيطة كالحصص، أو البوص (وهو نبات من نباتات المستنقعات المعرمة من الفضيلة النجيلية على هيئة القصب والغاب)، الذي كنا نستخدم منه عرائس، أو الأظلية المعدنية لزجاجات المياه الغازية المستعملة، تحت «التخيل» نبحث عن البلح الطازج أو

(مضخة) أو بركة بعيدة، أو الخروج مع البنات في الصباح الباكر في رحلات «الحشيش» إلى الحقول البعيدة، وبأيدنا غالباً أو بالخشن نقطع حشائش الأرض ونملأ بها أكياس متقاوتة الأحجام. كنت أختار أصغرهما، ولم أقرر يوماً على ملئها، فقد كانت المهمة صعبة للغاية، ولذلك كنت دائماً موضع سخرية من الرفيقات المهارات، ونسير بها، ونحن نضعها على رؤوسنا إلى البيت حيث تقدم للبياتم. كانت بالنسبة لنا نزهة ولهاو أكثر من كونها مهمة جدية كما كانت للرفيقات.. ذكريات كثيرة جداً مع أماكن وأشخاص تفرقت بهم سبل الحياة، أو رحلوا عنها دون وداع. جدي أو «سني» كما كنا نناديها، أو «امراة الحاج» كما لقيت بعد أن أدى جدي الفريضة منذ زمن بعيد، كانت الأكبر سناً، في عقدها السابع والأواني، الفخارية والمعدنية، وتعد لنا في بعض وجه الدقة، والأكثر نشاطاً بين قاطني البيت الواسع العديدين. كانت تسير في يومها وفق نظام دقيق لا يتغير، أول من تمام مساء وأول من تستيقظ فجرًا، تلعب الطيور والبهائم وتحول المياه من الصنبور العمومي لتلأ جميع الأواني، الفخارية والمعدنية، وتعد لنا في بعض الصباحت إفتاراً لنبدأ عبارة عن معكونة أو أرز بالليل والسكر. تغضبها الطيور إن تخلت عن رانتهم وهي جالسة على العتبة، كادتتها، يعبتون بالصنبور فقهرهم من بعيد بصوت مرتفع. في صفوها توزع عليهم الحولى التي لم يكن دولهاها الخاص يخلو منها، ولا يعرف من

أين كانت تأتي بها. تصر على قضاء حوائجها بنفسها ولا تستهويها أبداً مشاهدة التلفاز، فقد كانت على ما يبدو متمسكة بعالمها القديم. نطق حشائش الأرض ونملأ بها أكياس متقاوتة الأحجام. كنت أختار أصغرهما، ولم أقرر يوماً على ملئها، فقد كانت المهمة صعبة للغاية، ولذلك كنت دائماً موضع سخرية من الرفيقات المهارات، ونسير بها، ونحن نضعها على رؤوسنا إلى البيت حيث تقدم للبياتم. كانت بالنسبة لنا نزهة ولهاو أكثر من كونها مهمة جدية كما كانت للرفيقات.. ذكريات كثيرة جداً مع أماكن وأشخاص تفرقت بهم سبل الحياة، أو رحلوا عنها دون وداع. جدي أو «سني» كما كنا نناديها، أو «امراة الحاج» كما لقيت بعد أن أدى جدي الفريضة منذ زمن بعيد، كانت الأكبر سناً، في عقدها السابع والأواني، الفخارية والمعدنية، وتعد لنا في بعض وجه الدقة، والأكثر نشاطاً بين قاطني البيت الواسع العديدين. كانت تسير في يومها وفق نظام دقيق لا يتغير، أول من تمام مساء وأول من تستيقظ فجرًا، تلعب الطيور والبهائم وتحول المياه من الصنبور العمومي لتلأ جميع الأواني، الفخارية والمعدنية، وتعد لنا في بعض الصباحت إفتاراً لنبدأ عبارة عن معكونة أو أرز بالليل والسكر. تغضبها الطيور إن تخلت عن رانتهم وهي جالسة على العتبة، كادتتها، يعبتون بالصنبور فقهرهم من بعيد بصوت مرتفع. في صفوها توزع عليهم الحولى التي لم يكن دولهاها الخاص يخلو منها، ولا يعرف من

الرحلة

رحلة السفر طويلة جداً ومرهقة. كانت رحلة ليلية، لا نوم متصل أو عميقاً، بكاء الأطفال مزج للغاية، المرور المتكرر لعامل «بوفيه»، وهو يجز عربة امامه عبر عربات القطار: شاي، نسكافيه، سندويشات.. وآخرين يصعدون في كل محطة: مشبك، عيش، فلفل.. أحاول النوم وتفاذي صرصار صغير، ليس الوحيد هنا، يسير بجانب مقعدتي المجاور للنافذة. كيف يكون الحال في قطارات الدرجة الثالثة؟ إذًا؟ زجاج نافذتي المحكم لن يوصل صوتي، وددت

الذي يفصل عتمة الليل عن سطوع الشمس في نهار حار. الآن أستطيع أن أستمتع بمشاهدة الحقول والتخيل والشجر والدواب. كانت تلك المشاهدة ونحن أطفالاً تزيدنا حماساً للرحلة، ولا تزال عندي موضع اهتمام. الأراضي الزراعية ممتدة أمام ناظري، بعض رجال يعملون بها ونساء، يصحبنا النيل حيناً وحيناً تفتقر، أقرب حركة الناس في الطريق وأنامل وجوههم على كل محطة: أسبوط، طما، جرجا.. في الصباح الباكر لكل مقصده، فرادي أو جماعات: المدرسة أو الجامعة أو الغيط، وهناك من يذهب للعلاج. كتلك المرأة السنينية التي قابل مقدي في القطار مقعداً في محطة أسبوط حيث يكون التوقف لمدة أطول، ممثلة القوام دون الوجه الذي بدا جامداً مضطرب العينين، لا تدري إن كان جيوده يعكس شخصية صارمة أم يعكس ضيقاً طارئاً سوف يزول. كانت تحمل أوراقاً يبدو أنها تحايل عليها، ومعها أيضاً كيس بلاستيكي شفاف يضم علب الأدوية. لا أعرف لماذا استوقفتني واستأثرت بلبانها؟ ألوجها الأسمر الذي يئين بملامح صعيدية أصيلة؟ أم لم طرحتها السوداء المطرزة بالتركواز والملفوفة بإتقان فوق طرحة أخرى مكورة أعلى الجبهة بطريقة تلتفت النظر؟ أم لحركات يديها التي تصحب حديثها مع شاب يجلس بجوارها، مما ذكرني بحركات نساء الصعيد اللائي كنت أراهن في القرية وهن يثرثن معاً؟ بعض الوجوه أشعر نحوها بمشاعر ود ورغبة في التواصل ولكن زجاج نافذتي المحكم لن يوصل صوتي، وددت

منى علّام

كاتبة وصحافية من مصر

7000

مهاجر من دول أفريقيا السوداء محتجزون في «مستودعات» تابعة للحكومة الليبية، وقد وصل 168 ألف مهاجر من هذه الدول إلى إيطاليا عبر ليبيا خلال العام الحالي.

التعليم الخاص يتغول في تونس



من مدرسة رسمية ابتدائية في تونس

تعتبر نسب المدرس ومحو الأمية في تونس جيدة. هذه حقيقة لا يمكن إنكارها. وحتى سنوات قليلة ماضية، كان التعليم يحتل مراتب عالية متقدمة من حيث الجودة. ربما تعتبر السياسة التعليمية واحدة من الحسنات القليلة في حساب الدولة التونسية منذ استقلالها. التعليم العمومي في تونس مجاني وموحد تفاوت بين المناطق. على الرغم من كل ذلك، فإن هناك ظاهرة جديدة (نسبياً) ما انفكت تتعاظم وتفرس نفسها في السنوات الأخيرة: التعليم الخاص. يندر أن نتجول في شوارع المدن التونسية الكبرى فلا نلتفت لإعلانات عن افتتاح مدرسة أو كلية خاصة جديدة، وكلها تُعد للتلاميذ والطلبة بتوفير تكوين مثالي وضمان نجاح باهر.

التعليم الخاص لم يعد حكراً على الأثرياء، بل بدأ يجذب طبقات أخرى وينافس التعليم العمومي. كل المعطيات والأرقام تؤكد ذلك. ما هي أسباب هذا الإقبال على التعليم الخاص، وما هي تأثيراته المستقبلية؟

أرقام ومعطيات

حتى أواخر ثمانينيات القرن الماضي، كانت الدولة هي «المدرس» الوحيد للتونسيين، وكانت نسبة عالية من الميزانية تذهب إلى الوزارات المعنية بالتعليم. مع قدوم الجزائر بن علي، بدأت الأمور تسوء، فهو تبني خياراً اقتصادياً قائماً على التحلي التدريجي عن «الدولة الراعية» والسير نحو نظام نيوليبرالي ساهم في «سلعنة» التعليم وإخضاعه لنطق السوق. في حزيران/يونيو 1992 أصدرت الدولة قانوناً يسمح للمستثمرين بإنشاء مؤسسات تربوية وتعليمية خاصة. في البداية، لم يُنظر إلى هذه المؤسسات بجدية، لكن وبمرور السنوات، بدأ التعليم الخاص في جذب أعداد متزايدة من المنتسبين. هذه المؤسسات تنشط في كل مراحل التعليم من الحضنة إلى الماجستير.

التعليم الابتدائي: توجد في تونس اليوم قرابة 200 مدرسة ابتدائية خاصة تتوزع أغلبها على الولايات التونسية الكبرى: العاصمة وصفاقس وسوسة ونابل (أكثر من 150 مدرسة في هذه الولايات فقط). فيما تتناثر البقية في الولايات الأخرى. عدد التلاميذ المسجلين في التعليم الابتدائي الخاص يتجاوز الـ50 ألفاً. قد تبدو الأرقام عادية، خصوصاً إذا ما قارناها بعدد المدارس الابتدائية العمومية الذي يفوق الأربع آلاف ويتجاوز عدد تلاميذها المليون. لكن إذا ما علمنا أن عدد المدارس الخاصة كان إلى العام 2000 لا يتجاوز الأربعين مدرسة، وعدد التلاميذ المسجلين فيها كان لا يتجاوز العشرة آلاف، عندها فقط سنفهم أن قدرة هذه المؤسسات على استقطاب التلاميذ في تصاعد سريع ومستمر.

التعليم المتوسط (إعدادي وثانوي): يبلغ عدد الإعداديات والمعاهد الثانوية في تونس 1700 مؤسسة منها أكثر من 300 تتبع القطاع الخاص، أي بنسبة تقارب الخمس. أما أعداد التلاميذ فيتجاوز الـ80 ألفاً (مقابل 800 ألف في القطاع العمومي). نصف المؤسسات الخاصة تتوزع على أربع مدن كبرى (العاصمة، صفاقس، سوسة، نابل) فيما تتوزع البقية على المدن الأخرى.

التعليم العالي: حتى العام 2001، لم يكن عدد المؤسسات الجامعية الخاصة يتجاوز الستة، أما اليوم فتبلغ 66 مؤسسة، أي أن عددها تضاعف عشر مرات خلال 15 عاماً فقط. وهو مرشح لارتفاع بحكم أن هناك مؤسسات جديدة طور الإنشاء نتيجة الإقبال المكثف. يتجاوز عدد الطلبة المسجلين الـ35 ألفاً (مقابل 300 ألف طالب في القطاع العمومي يتوزعون على 190 مؤسسة). القطاع الخاص يستقطب 10 في المئة من الطلبة التونسيين ويدير أكثر من 25 في المئة من مجموع مؤسسات التعليم العالي في البلاد. أهم الاختصاصات التي يوفرها التعليم الخاص: الهندسة، الإعلام والتكنولوجيا، المحاسبة وإدارة الأعمال، الاختصاصات شبة الطبية وبدرجة أقل التصميم واللغوية.

أسباب انتشار الظاهرة

لكل عائلة أسبابها التي قد تدفعها إلى نبذ المدارس والجامعات العمومية والذهاب إلى القطاع الخاص.

يعتبر الكثيرون أن تدني مستوى التعليم العمومي في السنوات الأخيرة هو السبب الرئيسي، لكن في الواقع هناك أسباب أخرى أكثر تأثيراً، وهي تختلف حسب المرحلة العمرية للتلميذ وحسب الطبقة الاجتماعية التي تنتمي لها العائلة.

التعليم الابتدائي: المدارس الخاصة لديها قدرة جذب قوية بفضل عوامل عدة، عادة ما يكون عدد التلاميذ في صفوف هذه المؤسسات ما بين 15 و20 تلميذاً، أي تقريباً نصف ما هو عليه في المدارس العمومية المكتظة (25-35 تلميذاً في الصف الواحد)، مما يعني أن ظروف الدرس والتركيز أحسن، والوقت الذي يخصصه المدرس لكل تلميذ أكبر. كما تمتاز هذه المدارس بتركيزها على اللغات الأجنبية وتخصيصها وقتاً كبيراً للأشطة الفنية والترفيهية. الفئات المتوسطة تعتبر مصاريف المدارس الخاصة نوعاً من الاستثمار في تعليم أبنائها وتدعيم قدرتهم «التنافسية» التي ستمكّنهم من التفوق لاحقاً في المستويات الأعلى والتوجه إلى الاختصاصات العلمية «المرموقة» ذات الأفاق التشغيلية العالمية، أما الفئات المسورة فتزري في هذه المدارس أمناً بنشأ فيها أبنائهم مع تلاميذ «بشبهونهم»، كما أن الأمر لا يخلو من التميز أو ما يُقال له «البريستيج».

التعليم المتوسط (إعدادي وثانوي): الحقيقة أن مؤسسات التعليم المتوسط الخاصة لا تحظى بسمعة طيبة لدى التونسيين، فعادة ما يعتبرونها حاضنات

وليس التحصيل العلمي في حد ذاته أو تأمين عمل.

التأثيرات المستقبلية

منذ ربع قرن، ومع بداية ظهور التعليم الخاص، كان عدد منتسبيه لا يتجاوز العشرة آلاف على أقصى تقدير. اليوم يتجاوز عدد تلاميذ المؤسسات التعليمية الخاصة وطلبتها 170 ألفاً من جملة مليوني تونسي يتابعون الدراسة، أي بنسبة تقارب العشر. وكل المؤشرات تؤكد أن الظاهرة ما زالت تتعاظم. وتلاحظ أن تفول التعليم الخاص ستترتب عليه تأثيرات سلبية جداً على المدين المتوسط والطيول:

– تهديد منظومة التعليم العمومي: وهي واحدة من ضمانات الوحدة الوطنية، وتدخل في باب الأمن القومي.. منظومة بنيت عليها تونس الحديثة وأخرجت ملايين التونسيين من دائرة الجهل والفقر. بالتأكيد، ليست الأمور في القطاع العمومي مثالية، لكنه يبقى ضماناً لأبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة الدنيا، كما أنه مراقب من طرف الدولة، ويتميز بحضور قوي للثقافة في صفوف أساتذته وطلابه، عكس ما هو عليه الأمر في التعليم الخاص.

– ضرب مبدأ المساواة: يمنح التعليم الخاص أفضلية لمن لديه الثروة، فطالب فقير مثلاً لم يمكنه جموعه سيختار شعبة أخرى والسلام، أما الطالب الثري،

للتلاميذ «الفاشلين» الذين طردتهم المؤسسات العمومية إما لرسوبهم المتكرر أو لارتكابهم أخطاء فادحة. الكثير من هذه المؤسسات تعمل كصالح لبيع «النجاح»: يمكن مثلاً لتلميذ في القطاع العمومي رسب في السنة الأولى إعدادي بمجموع متدن جداً أن يسجل نفسه في مؤسسة خاصة فيجد نفسه في السنة الثانية إعدادي ثم يمر سالماً غانماً إلى السنة الثالثة. في هذه المؤسسات لا يرسب أحد تقريباً، ليس لأنها تصنع المعجزات أو تكتشف المواهب والقدرات الكامنة لدى التلميذ، لكن لأن «صاحب المحل» يسعى لإرضاء الزبائن فيضغط على المدرسين لكي يزيّنوا النتائج.

– التعليم العالي: في هذا المستوى، تصبح الأمور أكثر تعقيداً، فلامح طلبة المؤسسات الخاصة متنوعة جداً، هناك الذين يقصدون هذه الجامعات – أساساً أبناء الطبقة الوسطى – لأنها تعد بتشغيل المتخرجين منها بحكم علاقتها مع شركات عدة أو حتى شراكاتها معها.

عدد من الطلبة يقصدون هذه الكليات، لأنها تمكّنهم من تحقيق حلمهم بالدراسة في شعبة لم يسعفهم مجموعهم من امتحان البكالوريا من الذهاب إليها في السنة الأولى العمومي، لأن المقاعد محدودة وتمنح بحسب الكفاءة. بالطبع هناك الذين يختارون «الخاص» لأنه أكثر مرونة في الامتحانات وشروط الإرتقاء من سنة إلى السنة التي تليها. أما أبناء الطبقات الثرية، فعادة ما يكون هدفهم الأساسي هو الحصول على شهادة «اعتبارية»

وبالمجموع نفسه، فيمكنه أن يدرس الهندسة في جامعة خاصة، ويصبح مهندساً معترفاً به. مراهق في الإعدادي طرد بسبب ارتكابه حماقات وطيئاً، سيحرم من التسجيل في كل المؤسسات العمومية، وسيجد نفسه مجبراً على قبول عمل بأجر بخس أو الانحراف. أما التلميذ الذي ينحدر من عائلة ثرية، فيمكنه التمتع بالتسجيل في مؤسسة خاصة، وعفا الله عما سلف.

– إعادة إنتاج وتعميق الفرض الطبقية: تفول التعليم الخاص وتكريسه كاسرع وأنجع طريق نحو «المستقبل الباهر»، سيعيد إنتاج الفوارق الطبقية بل وسيعمقها، فالثروة والوظائف المهمة وإنتاج النخب ستكون كلها مقصورة على طبقة واحدة. يكفي أن نقول إن رسوم التسجيل الشهري في «أرخص» جامعة خاصة تتجاوز الأجر الأدنى المضمون في تونس.

– إضعاف مكانة المدرس: المدرس ركيزة أساسية في التعليم العمومي، له حقوق ولا يمكن لأولياء أو الإدارة الضغط عليه أو ابتزازه، فهو يتمتع بضمانات قانونية ودعم ثقافي قوية تضمن كرامته وحقوقه. في المؤسسات الخاصة هو «موظف» في خدمة صاحب العمل، الذين عملوا في التعليم الخاص يعرفون جيداً «جسيم» دلال التلاميذ وأوليائهم وسط سكوت بل وتواطؤ الإدارة.

محمد رامي عبد المولى

باحث من تونس

«تيسير الزواج» في مصر مبادرات مجتمعية لمواجهة إرث العادات والتقاليد

مدونات الجريمة، إقبال الشباب على المخدرات، ظاهرة الأطفال اللقطاء، انتشار الاضطرابات النفسية لدى الشباب.. وفي محافظة الجيزة، نظم بعض الأهالي بقرية «البراجيل» التابعة لمركز أوسيم مؤتمراً بعنوان «مبادرة تيسير الزواج» بحضور كبار العائلات والأسر، استهدف التحلي عن بعض المطالب البالغ فيها مثل الشبابة والمهر وغيرهما. واتفق الحاضرون على تخفيف بعض الأعباء المادية على المتزوجين مثل إلغاء «النش»، وهو عبارة عن دولاخ خشبي يواجهه زوجة شقافة تضع فيه المصريات المتزوجات حديثاً أكواب وأطباق وكؤوس وقطع كريستال وفضة تكفي لعشرات الأسر، ويتسابقن فيما يبيحن على كم وقيمة محتوياتها التي لا استخدام لها بالأساس في الغالب ولا طائل منها، وهو أحد المتطلبات الرئيسية التي دشّن العديد من الشباب «ثورة فيسبوكية» عليه، مطالبين بإلغائه باعتباره غير ضروري ومكلف ويرتبط بفكرة الوجهة الاجتماعية لا أكثر.

هل تنجح الجهود المجتمعية وحدها؟

تأتي تلك المبادرات كانعكاس للتغيرات الاقتصادية السلبية، خاصة خلال السنوات القليلة الماضية، وانعكاساتها على أسعار السلع وأسعار العقارات. وفي هذا الإطار، فإنه لا بد التأكيد على أن تلك المبادرات هي رد فعل طبيعي من العقل الجمعي من أجل مواجهة ظاهرة تأخر سن الزواج

إحصائية صادرة عن الجمة الرسمية نفسها خلال العام الجاري إلى أن معدل البطالة بين الشباب يبلغ 27.3 في المئة، في حين أن هناك أرقاماً غير رسمية تؤكد أن الرقم أكبر من ذلك بكثير. وفي كل الأحوال، فذلك يعكس وضعا متدياً للشباب يؤثر بالتأكيد على إقبالهم على الزواج، خاصة في ظل ارتفاع تكاليف ومتطلباته بشكل يجعله شبه مستحيل.

نماذج لمبادرات مجتمعية

أحد أبرز المبادرات التي انتشرت مؤخراً، مبادرة «بلاها شبكة»، وتم تدشينها بالصعيد جنوب مصر، وتقوم على التحلي عن الشبكة وهي عبارة عن الذهب الذي يقدمه العريس للعروس، وذلك من أجل تقليل تكاليف الزواج، خاصة في ظل ارتفاع أسعار الذهب بشكل قياسي. كذلك انطلقت من محافظة بني سويف بصعيد مصر إلى محافظات أخرى مبادرة «زواج بدون ذهب»، والتي طالبت أيضاً بإلغاء الذهب من قائمة طلبات العروس. وفي السياق ذاته انطلقت مبادرة شبابة أخرى اسمها «أتزوجوا ببساطة»، وتهدف بالأساس إلى تخفيف تكاليف الزواج، ودعا القائمون عليها إلى ضرورة التبسيط في متطلبات الزواج وعدم وضع «الحفاظ على المكانة الاجتماعية»، كعائق أمام ذلك.

وكذلك ظهرت مبادرة «عزيز أتزوج»، التي اتسمت بتفاعل عدد كبير من رواد مواقع التواصل الاجتماعي معها، خاصة في ظل تأكيدها على الدعايات الاجتماعية الخطيرة للملافة في تأخر سن الزواج مثل زيادة

انتشرت مؤخراً مبادرات متنوعة من أجل تيسير الزواج في محافظات مصرية مختلفة، بالإضافة إلى مواقع التواصل الاجتماعي التي حفلت بكثير منها. وقد ظهرت تلك المبادرات بالأساس من أجل التخفيف من متطلبات الزواج، وضرورة التنازل عن كثير من الأشياء التي تغفل كامل الشبان والفتيات، سواء لجهة تخفيف المهور، أو لإلغاء شرط الذهب، أو لإلغاء أحد متطلبات السكن غير الضرورية أو الملحة، وترتبط تلك المبادرات بالتأكيد بالواقع الاقتصادي وما له من دعايات اجتماعية جمة.

الزواج في مصر: أرقام هامة

ازدادت في مصر خلال الفترة الأخيرة ظاهرة تأخر سن الزواج، أو ما يُطلق عليه مصطلح «العنوسة». فوفقاً لـ «الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء» فإن عدد الشبان والفتيات الذين تتجاوز عمرهم 35 عاماً من دون زواج بلغ 13 مليون شاب وفتاة في مطلع العام الحالي، منهم 2.5 مليون شاب و10.5 مليون فتاة، وأن نسبتهم تختلف من محافظة إلى أخرى، حيث بلغت في المحافظات الحدودية 30 في المئة، ومحافظات الوجه البحري 27.8 في المئة، والصعيد 25 في المئة، في حين تبلغ حالات الزواج العرفي في مصر حوالي 88 ألف حالة، أي بنسبة 9 في المئة من إجمالي عقود الزواج. ويرتبط ذلك بالوضع الاقتصادي للشباب المصري، حيث أشارت

أحمد عبد العليم
كاتب وباحث سياسي من مصر

خلع الحجاب

عذابات النساء في الدفاع عن حق الاختيار

«إننا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة أمينات مطمئنات في بيوتهن، ولا تزعموهن بأحلامكم وأمالكم، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا الشرف.. كلمات جاءت على لسان الكاتب المصري المعروف «مصطفى لطفى المنفلوطي» في مجموعته القصصية «العبرات» بقصة اختار لها اسم «الحجاب». لم تكن قصة بقدر ما هي خطبة لأذعة يوجهها لـ «قاسم أمين»، رائد حركة تحرير المرأة في مصر في أوائل عشرينيات القرن الماضي. والسطور السابقة هي بعض مما نال «قاسم» بسبب ندائه بخلع البراءة المصرية للبرقع عن وجهها، والتحرر بالعلم وعدم القبول بالحياة من خلف «حجاب».

عقود مرت، هل تغيرت الصورة كثيراً؟ هل أصبح ما دفعه قاسم وغيره من نساء ورجال في سبيل حق الدفاع عن أفكار مختلفة وجريئة أمراً ممتنعاً؟ غالباً الإجابة هي بـ «لا». لم يتحرك المجتمع بعيداً إلا خطوات قليلة متذبذبة، فما زالت كلمة «حجاب» حاضرة للدفع إلى الكثير من الجدل والاختلاف داخل المجتمع المصري، وما زال الثمن الذي تدفعه الفتاة التي تقرر أن تسير عكس التيار دفاعاً عن حقها الشخصي في اختيار هيئتها هو من أشد الأثمان وطأة، بينما على الجانب الآخر يتازع المجتمع بشراسة شديدة من أجل الحفاظ على ما يراه صحيحاً عادلاً ومستقراً.

«ظاهرة» خلع الحجاب يشير الكثيرون إلى أنّ هناك ظاهرة أخذت في الانتعاش بالحياة المصرية هذه الأيام، وهي إقبال كثير من الفتيات بشكل فردي على «خلع الحجاب»، وهو ما يحدث بالفعل من دون التوقف للتدقيق المطلوب بكلمة «ظاهرة». وكما هو معاد مع كل موجة تغيير، تخرج النظريات العامة الخطابية سريعاً محاولة تفسير ما ترى، أكثر مما تتوقف لسماع أصحاب الشأن، بل وقد تذهب لتطويع ما ترى بناء على الاتجاهات السياسية المتصارعة. لذا فليس غريباً أن نسمع أنّ ما يحدث هو لوثة فكرية نتيجة الخلل الذي يعيشه المجتمع المصري بعد نزوح حكم جماعة الإخوان المسلمين منه، مما خلق حالة هلع من «التدين»، أو ادعاء سطحي بوجود توجه سياسي رسمي لتجديد الخطاب الديني.. وغيرها من الآراء العامة المعلية.

بعيداً عن كل ذلك وعن الحرب الضروس المفتوحة على شاشات الفضائيات، كانت وسائل التواصل الاجتماعي هي المنقش الحقيقي، وغير الفضاء الواقع خارج السيطرة التقليدية للمجتمع، وجدت الكثير من الفتيات مساحة للتعبير عن أسباب اتخاذها قرار «خلع الحجاب» أو العودة لارتدائه في بعض الحالات.

مسائل هامة طرحها النقاش عبر تلك الصفحات، مثل: «لماذا يضطرنني المجتمع لشرح أسباب خلعي للحجاب على الرغم من أن أحداً لم يسألني يوماً لماذا وضعته فوق رأسي؟»، «أنا أضغ صورتي على صفحتي الشخصية من دون حجاب، لأعلن أنني اخترت تغييراً أراه هامياً في حياتي.. لم أستهدف سماع كلمات المباركة ولا أقبل بالتأكيد كلمات التجريح والإهانة»، «اتخذت قراري لأنني أصبحت على قناعة كاملة أنني لا أؤدي واجباً دينياً بوضعي غطاء للرأس فوق شعري»، «خلعت الحجاب اليوم وقد أعود لارتدائه.. اختصاراً: أنا حرة»، «يحرزني حزن أهلي لخلعي الحجاب، لكن ما يحزني أكثر هو ارتضاؤهم إجباري عليه».

قررت أخريات تطوير مطلقهن عبر كتابة المقالات والظهور في قنوات إعلامية محددة ومحدودة، وكان المشترك الأغلب في تلك الممارسات أن أياً منهن لم تقل أنها تعبر عن اتجاه أو تدعو غيرها لحذو حذوها. السمة الأكثر وضوحاً وحضوراً هي الإصرار على الاعتزاز بكل ما هو شخصي في هذه التجربة، بدايةً من اتخاذ القرار إلى شرحه والفتاب عليه أو العدول عنه.

«قبل سنين خلعت طفولتي المنكسرة ووضعت مكانها حجاباً يغطي عورتي المضفرة، أتذكر يومها ابتسامة أمي ذات الوجه الأبيض الدائري الصبوح، التي اعتدت عند مطالعة صورها القديمة عندما كانت في العشرينيات من عمرها، أن أتبهر بدوقها وملابسها وشعرها السدول برفق وألق فوق كتفيها الجميلين. لن أنكر أن الصبية ذات الأربعة عشر ربيعاً وافقت بإرادة كاملة على التخلي عن أن تمتلك في يوم من الأيام صورة كنتك الصور، لكن هذه الإرادة كانت مشوية بخيال منتهك من التقديس الذي حول العادات إلى عبادات». هكذا ذهبت إحدى الشابات في مقال ذاتي بعنوان «لهذه الأسباب قررت خلع الحجاب»، مقال لاقى انتشاراً واسعاً لأهميته ومصداقيته. وقد خرج للنور بالأيام القادمة مقالات أخرى تحكي الكثير، سواء عن القرار نفسه أو تحمل عناوين أخرى تدور الفلك ذاته، مثل «لهذه الأسباب أخشى خلع الحجاب»، أو «لهذه الأسباب أتمسك بالحجاب».

الإجابة الضاغطة على أطراف تلك التجارب، تتبدى ملامح قاسية متكررة، أهمها بالتأكيد الضغوط الأسرية إلى حد الاعتداء بالضرب أو منع النزول من المنزل أو الطرد منه. ملمح آخر يتعلق برد الفعل الذكوري الذي يذهب بعضه لرفض الارتباط بالفتاة التي خلعت حجابها، أو ذاك الذي يشجع باستماتة، ويتشدد بمماني تحرر.. لا يعينها، ولكنه يقلبها فقط للمتعم كنتائجها طالما لم تصل إلى بيته، أما الملمح الثالث فهو رد الفعل النسائي على ممارسات نساء أخريات، فنجذ المتوجسات، والتمنيات في صمت، والمهاجمات

بشراسة.. والغريب أن بعضهن غير محجبات، ولكنهن ترفضن بشدة أن تخلع إحداهن الحجاب وأن تروج بأنه ليس فرضاً دينياً. بعض الفكريين والباحثين بأمور الشريعة والدين يحاولون الاشتباك مع القصة، لكن على الحدود البعيدة فيقفون في مساحة بين تأكيد فرضه وعدمه، دون تقديم طرح محكم واضح، بينما سارعت مؤسسة الأزهر بإصدار فتوى واضحة تؤكد أن «الحجاب» - في إشارة لتغطية الرأس وارتداء ما لا يشف ولا يصف - هو أمر وجوبي وجزء من هيئة «الإسلام» لا «المسلمة» فقط، والعدول عنه «إثم» كبير. أما ما لم تلقت المؤسسة الرسمية لأهمية التطرق له، بينما هو الأكثر تعبيراً عن الأزمة التي تحدث عنها أغلب الفتيات، فهو سؤال: وهل يحق للأهل إجبار الفتاة على الإتيان بما لا تريد باسم الفريضة الشرعية؟

سؤال يتكون من كلمات قليلة، ولكنه بالفعل يفتح الباب لمئات الأوجاع والقصص المتشعبة، وجميعها تدور حول دائرة واحدة هي «النساء المربوطة»، وتاريخ ما تم فرضه عليها من وصاية باسم الدين والعرف والسائد بما يتعلق بكافة أمورها، بدايةً من ملابسها وحتى أفكارها.. لقرار زواجها وانفصالها وحتى اختيار مكان الدفن بعد الموت.

في القاهرة، واجهت بعضهن بتوقيت واحد هذا التحكم، وقررن اتخاذ قرار يتعلق بـ «خلع الحجاب»، والتعبير عن قرارهن الشخصي، ما زالت الأسئلة مطروحة عن أسباب التوقيت وتفسيره، وعماً إذا كان سيقترن عن ذلك حركة مجتمعية ذات خطاب واضح أم لا. الأمر لم تتضح ملامحه بعد، لكن ما يؤكد هو أن هناك بعض الفتيات قررن المواجهة من أجل انتزاع حق الاختيار.

في نهاية قصته، رسم «المنفلوطي» صورة تراجمية لا تمت لواقع حياة «قاسم أمين» - الذي لم يذكر اسمه صراحة - بصلة، وهي أنه جمعه الصدفة به بعد قطعة سنوات، فألق عليه الذهاب معه إلى مخفر الشرطة، وهناك فوجئ بالفجعة، فقد تم القبض على زوجته التي «جرها» في وضع غير لائق مع صديقه الذي «سمح له بالاختلاط بها»، فنأزع تزعه الأخير وهو يسأل الله أن يغير له ذنبه، لأنه هو من هيا لهما الفرصة بعد أن رفع «الحجاب» الذي كان يفصلهما.

صورة مأساوية تلفيقية لم تحدث إلا في خيال الكاتب الغيور، لكنها تعبر بالتأكيد عن حجم المعاناة التي يلاقها كل من يفكر بالخروج عن المألوف، وحجم ما يضطر لدفعه كخمن للدفاع عن أفكاره واختياراته.

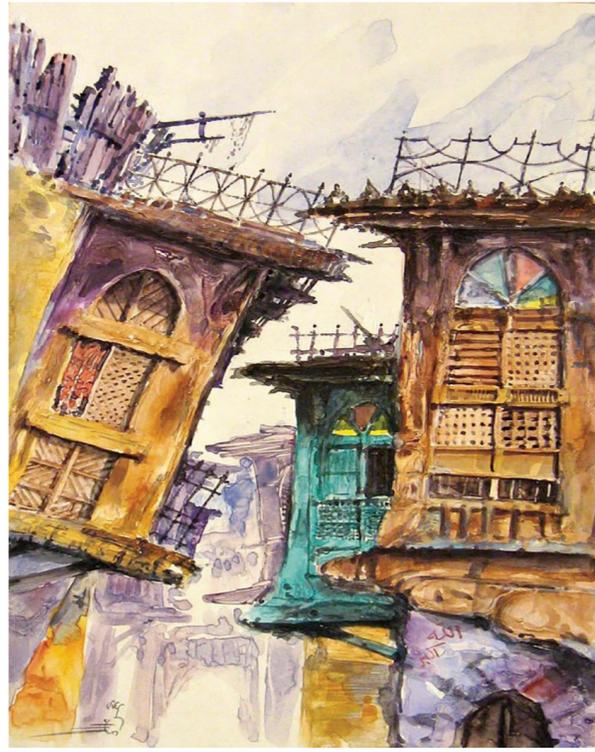
منى سليم

صحافية من مصر

43

حلم..

عمار سالم / العراق



arabi.assafir.com

المزيد على موقع «السفير العربي»
المساهمة الاقتصادية للمرأة الغربية: تطورها وحدودها - لطيفة اليوسيني
- الوزراء بالجزائر يخفصون روايتهم الشهيرة - محمد مرواني
- نقاشات عروض أفلام مهرجان «شاشات لسينما المرأة في فلسطين»
- تابعونا على «فايسبوك»: السفير العربي - Assafir Arabi
- تواصلوا معنا على «تويتر»: @ArabiAssafir

.. بألف كلمة

جفاف في الصومال

الأمطار في الصومال موسمية، ما يجعل للزراعة موسمين أحدهما يمتد من نيسان / أبريل إلى حزيران / يونيو بينما يبدأ الثاني في تشرين الأول / أكتوبر ويمتد حتى كانون الثاني / يناير. لكن المطر هذا العالم كاد أن يكون معدوماً. ومع ارتفاع درجات الحرارة، أصاب الجفاف الأراضي في بوتولاند (أرض البنط) وصومالي لاند في الشمال. ومن آثاره حتى الآن موجات تزوح كبيرة ونقص تغذية متزايد ونفوق المواشي.. بينما الصراعات المسلحة لا تنتهي



تصوير: محمد عبد الوهاب / AFP



مدونات

موريتانيا: سكايب.. صوت القاع

همس صوته معرفاً بنفسه: أنا «سكايب ولد الناس كاملة». كان صوته الغاضب ينبعث من مسجل التاكسي المتهك ككلام الفقراء في بلدي والتهالك كخطاب العصابة الحاكمة. راق لي ذلك التعريف المتعالي على الشرائحية، فسكايب قرر أن يكون ابن المواطنين من دون تخصص. وقررت الإنصات له حين قال: «شوف تخماني» (بالعامية الموريتانية وتعني: اسمع ما يدور في خاطري من أفكار). وكان يتحدث عن العنصرية بصوته المستفز قصداً، فهو في ما يبدو يهوى إزعاج السلطة، سواء كانت سياسية أو عسكرية أو مجتمعية.

تلك هي أول مرة أسمع فيها بـ «سكايب». كانت صدفة جميلة في يوم حار وجاف كمشاعرنا نحن سكان موريتانيا العظمى. بعدها، دخلت في مرحلة البحث عن شظايا من انفجاره الخطير، فوجدت على اليوتيوب الكثير من أغانيه المشتعلة بهيموم الإنسان الموريتاني، يعبر فيها عن فساد الشرطة والقضاء والسلطة والعلماء ورجال الأعمال، عن تراجيديا إنسان القاع الذي لم يجد سوى اعتناق الجريمة للبقاء في علنا الوحش. عن حياة الشارع وفقدان الأمن بعاصمتنا الشحيحة، فقد صرخ ذات مرة وقال: «نواكشوط يخلع». ينتقي سكايب كلماته من قاموس الشارع بدون محاولة للتورية، هو صريح كفتاتي الرباب الناثرين، يحكي عن مشاهد تلخص معاناة المواطن المكلم، كلماته تلسع كالعقرب، سمها موجه للطغمة الفاسدة، وقد قلّ مواطن عن سكايب: «هذا الصوت لليب قادم من جهنم».

سكايب فأنديتي مقنع، يحب أن يظل في الخفاء يضرب الطغاة بصوته (...).

من مدونة «أحمد جدو»

السودان: هذه المخدرات لمن؟

بوتيرة شبه ثابتة تنصدر الأخبار حاوية أو حاويات مخدرات بالبيضاء، وإشادة بمن اكتشفوا هذه الحاوية أو الحاويات (...)

عدة استقهامات تطرح نفسها. الاستقهام الأول، هذا المكتشف، فهل هناك حاويات عبرت دون أن تكتشف؟ وهل ما زال الاكتشاف خاضعاً لمهارات الشرطة ونزاهتها؟ ليس في العالم الآن وسائل حديثة تكشف المخدرات؟ (...) أما شيع اسم السودان من تذييل القوائم؟ الاستقهام الثاني هل هذه المخدرات عابرة أم للسوق المحلي؟ وهل السوق المحلي يستهلك كل هذه الكميات؟ لا علم لي بأنواعها، ولكنها حتماً أغلى من المحلي («البندق»). إذا لبي الطليقات هذه المخدرات؟ وإذا كانت عابرة، فأي البلاد تمرر، ولماذا كل هذه اللغة الطويلة من لبنان أو غيره حتى تصل البلاد المقصودة (...). ما المغربي في هذا السودان الذي يجعل مهربي المخدرات يفضّلون ميناء بورتسودان؟

(...) بالنسبة لم نسمع ولم نقرأ إدانة مهرب حاويات مخدرات واحد حتى الآن، وخصوصاً الحاويات الست المشهورة. هل القضية كل هذا الزمن أمام القضاء أم دُونَ البلاغ ضد مجهول؟ هل وراء هذه الحاويات جهات تصعب محاكمتها؟ أو أشخاص فوق القانون أو لا يحاكمون إلا بعد رفع الحصانة (...).

كل حاوية مخدرات هي حرب على مستقبل هذا البلد في شبابه، فإذا لو كانت حاويات (بالجمع).

في الختام، شكراً لكل من قبض على مخدرات.

من مدونة «استقهامات»

الجزائر: معطوبو أحداث 27 فيفري (شباط)

بورقلة يطالبون بالتعويض

طالب معطوبو أحداث 27 فيفري 1962 التاريخية بورقلة السلطات الفرنسية بوجوب تعويضهم عن الأحداث الدامية التي عرفت استشهاده 5 من رفاقهم فضلا عن إصابة العشرات، بعضهم يعاني إلى حد الساعة من عجز دائم.

ومعلوم أن أحداث 27 فيفري 1962 بورقلة كانت بمثابة «آخر مسمار في نعش فرنسا الإستعمارية»، حيث زعمت فرنسا حينها أن سكان الجنوب لا يرغبون بالاستقلال عن فرنسا. وذهبت إلى ترويج هذه الفكرة عبر وسائل الإعلام الفرنسية ومنظمات حقوق الإنسان. غير أن الشعب قال كلمته وخرج بالمئات تحت وابل من الرصاص، ينادي: «الجزائر واحدة غير قابلة للتقسيم».

وحسب شهادات متطابقة لمن عايشوا تلك الفترة، من بينهم الرئيس الأسبق لـ «جمعية 27 فيفري 1962» (...) فإن تلك الأحداث الدامية قابلها السكان بصمود عارية في أول أيام رمضان، ما جعل الدرك الفرنسي يراجع حساباته من جديد، بينما فر أعضاء الوفد الفرنسي بجلدهم عبر طائرة خاصة انطلاقاً من مطار عين البيضاء.

ويتمسك مجاهدو المنطقة بضرورة التعويض، على غرار مطالب نظرائهم في بقية الولايات، كما طالبوا بوجوب ترسيم هذه الأحداث كيوم وطني وتاريخي، فضلا عن تنصيب لجنة لإحصاء الضحايا، والجرحى، ومنحهم حقوقهم وتحديد نسبة العجز، وتعويض المعتقلين وضحايا التعذيب، وهو أفضل جميل لوزارة المجاهدين أن تقدمه لهم.

من مدونة «صرخة الصحراء»